بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَجُّ بَيْنَ كَمَالِ الْإِيمَانِ، وَعَظَمَةِ التَّيْسِيرِ، وَمَا عَلَى الْحَاجِّ قَبْلَ سَفَرِهِ ١٦ ذُو الْقَعْدَةِ ١٤٤٥ هـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْحَجَّ مَدْرَسَةٌ مُتَكَامِلَةٌ لِلتَّرْبِيَةِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَتَحْقِيقِ الْإِسْلَامِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْآثَامِ، وَرِعَايَةِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، كَانَتْ خُطْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مُتَنَوِّعَةً شَامِلَةً لِبَيَانِ الدِّينِ كُلِّهِ، وَتَقْرِيرِ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ، وَبَيَانِ حَقَائِقِ الْإِسْلَامِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْكَبَائِرِ وَالْآثَامِ، جَاءَتْ مُتَنَوِّعَةً فِي بَيَانِ مَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمَةِ، وَغَايَاتِهِ الْحَمِيدَةِ، وَآدَابِهِ الْكَامِلَةِ التَّامَّةِ، أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -وَهُوَ صَحِيحٌ- عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَنِ الْمُسْلِمُ؟ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ»، وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا لَعَلَّكُمْ لَا تَرَوْنِي بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، أَلَا لَعَلَّكُمْ لَا تَرَوْنِي بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، أَلَا لَعَلَّكُمْ لَا تَرَوْنِي بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا». فَقَامَ رَجُلٌ طَوِيلٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، فَمَا الَّذِي نَفْعَلُ؟ فَقَالَ: «اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَحُجُّوا بَيْتَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاتَكُمْ طَيِّبَةً بِهَا أَنْفُسُكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»، وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ: أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا». فَالْحَجُّ دَعْوَةٌ لِتَحْقِيقِ الْإِيمَانِ، وَتَتْمِيمِ الْإِسْلَامِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْمَنَاهِي وَالْآثَامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ،

فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَىٰ أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ دِينَنَا دِينُ الْيُسْرِ، فَالنَّبِيُّ بُعِثَ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، فَالدِّينُ قَائِمٌ عَلَىٰ الْيُسْرِ وَعَدَمِ الْمَشَقَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: فِي الْحَجِّ تَتَجَلَّىٰ مَظَاهِرُ تَّوْحِيدِ اللهِ ﷻ، وَإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ سُبْحَانَهُ، **وَمِنْ ذَلِكَ: التَّلْبِيَةُ**. فَبَعْدَ أَنْ يَتَجَرَّدَ الْحَاجُّ مِنْ لِبْسِ التَّرَفِ بِاللِّبَاسِ، وَيَلْبَسَ لِبَاسَ الْإِحْرَامِ الَّذِي يَتَسَاوَىٰ فِيهِ كُلُّ الْحُجَّاجِ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ، غَنِيُّهُمْ وَفَقِيرُهُمْ، رَئِيسُهُمْ وَمَرْؤُوسُهُمْ، وَيَتَذَكَّرُ الْحَاجُّ فِي هَذَا اللِّبَاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَمَا يَأْتِي رَبَّهُ حَافِيًا عَارِيًا، لِيَزِيدَهُ بِذَلِكَ خُضُوعًا وَخُشُوعًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ يُهِلُّ بِالتَّوْحِيدِ بَعْدَ نِيَّةِ الدُّخُولِ بِالنُّسُكِ، وَيُعْلِنُ الْبَرَاءَةَ مِنَ الشِّرْكِ بِقَوْلِهِ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ»؛ لِيَكُونَ الْحَاجُّ بِهَذَا الإِهْلَالِ قَدْ أَعْلَنَهَا اسْتِجَابَةً بَعْدَ اسْتِجَابَةٍ، وَمَحَبَّةً بَعْدَ مَحَبَّةٍ لِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الَّذِي خَلَقَهُ لِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، بِتَلْبِيَةِ نِدَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِحَجِّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ. يُعْلِنُهَا وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِهَا، وَأَنَّ اللهَ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا أُلُوهِيَّتِهِ، وَلَا أَسْمَائِهِ

وَصِفَاتِهِ، فَهُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، الْمُحْيِي الْمُمِيتُ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ، الْمُسْتَحِقُّ وَحْدَهُ لِلْعِبَادَةِ؛ فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ مَعَهُ غَيْرُهُ مِنْ شَيْءٍ، لَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا الْأَوْلِيَاءِ، وَلَا الْجِنِّ، وَلَا الْقُبُورِ، وَلَا الْأَصْنَامِ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ؛ وَلَا مَثِيلَ لَهُ، وَلَا نِدَّ وَلَا شَبِيهَ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وَقَوْلُهُ: «إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ» أَيْ: إِعْلَانٌ وَإِقْرَارٌ، وَاعْتِقَادٌ وَانْقِيَادٌ، أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ كُلِّهِ، وَالْكَمَالِ كُلِّهِ؛ فَهُوَ الْمُنْعِمُ، وَالنِّعَمُ كُلُّهَا مِنْ عِنْدِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا تَخْرُجُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ عَنْ مُلْكِهِ وَقَهْرِهِ، وَتَدْبِيرِهِ وَتَصَرُّفِهِ، فَلَا مُعِينَ لَهُ، وَلَا نِدَّ وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَمَا أَجْمَلَهُ مِنْ مَنْظَرٍ! وَمَا أَحْلَاهُ مِنْ صَوْتٍ، يُرَدِّدُهُ الْحُجَّاجُ بِاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، حَتَّىٰ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ يُلَبِّي بِتَلْبِيَتِهِمْ؛ كَمَا عِنْدَ ابْنِ مَاجَهْ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُلَبٍّ يُلَبِّي، إِلَّا لَبَّىٰ مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، مِنْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ مَدَرٍ، حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ، مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا». قَالَ السِّنْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «حَاشِيَتِهِ عَلَىٰ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ»: اتِّبَاعُهُمْ فِي هَذَا الذِّكْرِ دَلِيلٌ عَلَىٰ فَضِيلَتِهِ وَشَرَفِهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَ اللهِ؛ إِذْ لَيْسَ اتِّبَاعُهُمْ فِي هَذَا الذِّكْرِ إِلَّا لِذَلِكَ، عَلَىٰ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُكْتَبَ لَهُ أَجْرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لِمَا أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ صَدَرَ عَنْهَا الذِّكْرُ تَبَعًا، فَصَارَ الْمُؤْمِنُ بِالذِّكْرِ كَأَنَّهُ دَالٌّ عَلَىٰ الْخَيْرِ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ التَّوْحِيدِ فِي الْحَجِّ: الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ طَاعَةً لِلَّهِ وَإِجْلَالًا، وَتَعْظِيمًا لِشَعَائِرِهِ وَإِخْلَاصًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾. فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْمُسْلِمُ هَذَا الْمَعْنَىٰ الْعَظِيمَ وَهُوَ يَرَىٰ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، فَيَبْتَدِئُ طَوَافَهُ بِالْبَيْتِ بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَكْبِيرِهِ؛ امْتِثَالًا وَقُرْبَةً يَتَقَرَّبُ بِهَا لِرَبِّهِ، لَا لِجَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ مِنْ هَذَا الْبِنَاءِ؛ وَإِنَّمَا يَطُوفُ حَوْلَهُ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَهُ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ

سُبْحَانَهُ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، وَيَعْتَقِدُ وَهُوَ يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ أَنَّ الطَّوَافَ بِأَيِّ بِنَاءٍ عَلَىٰ وَجْهِ التَّعَبُّدِ شِرْكٌ بِاللهِ تَعَالَىٰ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الْمَعْنَىٰ مِنْ مَعَانِي التَّوْحِيدِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ بَيَّنَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «مِيمِيَّتِهِ» شَوْقَ الْمُؤْمِنِينَ لِبَيْتِهِ الْحَرَامِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

أَمَا وَالَّذِي حَجَّ الْمُحِبُّونَ بَيْتَهُ ... وَلَبُّوا لَهُ عِنْدَ الْمَهَلِّ وَأَحْرَمُوا
وَقَدْ كَشَفُوا تِلْكَ الرُّؤُوسَ تَوَاضُعًا ... لِعِزَّةِ مَنْ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتُسْلِمُ
يُهِلُّونَ بِالْبَيْدَاءِ لَبَّيْكَ رَبَّنَا ... لَكَ الْمُلْكُ وَالْحَمْدُ الَّذِي أَنْتَ تَعْلَمُ
دَعَاهُمْ فَلَبَّوْهُ رِضًا وَمَحَبَّةً ... فَلَمَّا دَعَوْهُ كَانَ أَقْرَبَ مِنْهُمُ
تَرَاهُمْ عَلَىٰ الْأَنْضَاءِ شُعْثًا رُؤُوسُهُمْ ... وَغُبْرًا وَهُمْ فِيهَا أَسَرُّ وَأَنْعَمُ
وَقَدْ فَارَقُوا الْأَوْطَانَ وَالْأَهْلَ رَغْبَةً ... وَلَمْ يُثْنِهِمْ لَذَّاتُهُمْ وَالتَّنَعُّمُ
يَسِيرُونَ مِنْ أَقْطَارِهَا وَفِجَاجِهَا ... رِجَالًا وَرُكْبَانًا وَلِلَّهِ أَسْلَمُوا
وَلَمَّا رَأَتْ أَبْصَارُهُمْ بَيْتَهُ الَّذِي ... قُلُوبُ الْوَرَىٰ شَوْقًا إِلَيْهِ تَضَرَّمُ
كَأَنَّهُمُ لَمْ يَنْصَبُوا قَطُّ قَبْلَهُ ... لِأَنَّ شَقَاهُمْ قَدْ تَرَحَّلَ عَنْهُمُ
فَلِلَّهِ كَمْ مِنْ عَبْرَةٍ مُهْرَاقَةٍ ... وَأُخْرَىٰ عَلَىٰ آثَارِهَا لَا تَقَدَّمُ

وَكَمَا قِيلَ:

يَحِنُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْحِجَازِ فُؤَادِي ... وَيَحْدُو اشْتِيَاقِي نَحْوَ مَكَّةَ حَادِي
وَلِي أَمَلٌ مَا زَالَ يَسْمُو بِهِمَّتِي ... إِلَىٰ الْبَلْدَةِ الْغَرَّاءِ خَيْرِ بِلَادِ
بِهَا كَعْبَةُ اللهِ الَّتِي طَافَ حَوْلَهَا ... عِبَادٌ هُمْ لِلَّهِ خَيْرُ عِبَادِ
لِأَقْضِيَ فَرْضَ اللهِ فِي حَجِّ بَيْتِهِ ... بِأَصْدَقِ إِيمَانٍ وَأَطْيَبِ زَادِ
أَطُوفُ كَمَا طَافَ النَّبِيُّونَ حَوْلَهُ ... طَوَافَ قِيَادٍ لَا طَوَافَ عِنَادِ
وَأَسْتَلِمُ الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ تَابِعًا ... لِسُنَّةِ مَهْدِيٍّ وَطَاعَةِ هَادِي